بلاغة الاحتيال ـ دراسة في الشعر الأندلسي

الدكتور علي مطشر نعيمة
جامعة البصرة – كلية التربية

الخلاصة

يمثل هذا البحث دراسة طريفة كشفت عن بلاغة الاحتيال في الشعر الأندلسي ، وتوزّعت مادة البحث على ثلاثة محاور مسبوقة بمدخل استعرضنا فيه المعاني اللغوية للاحتيال ومبرّراته الدينية والفنية والنفسية .

واستعرضنا في المحور الأول حيل العطاء التي كشفت عن زيف أحاسيس الشعراء تجاه ممدوحيهم ؛لأنَّ الهدف الوحيد للشعراء الوصول إلى المال بصرف النظر عن هوية مانحه .

ورصدنا في المحور الثاني حيل الحب واللذة ، ففي حيل الحب كانت الغاية الحصول على رضا المحبوب ، في حين استهدفت حيل اللذة الوصول إلى أية منطقة من مناطق الإثارة في جسد المحبوب سواء أكان امراة أم غلاما .

ووقفنا في المحور الثالث عند حيل الاستعطاف ، وفيها كان مستقبل الشاعر وحياته مرهونين ببلاغة الاحتيال التي كادت أن تؤتي ثمارها لولا توتر الشعراء وعدم سيطرتهم على انفعالاتهم .

لقد افتقدت حيل العطاء واللذة والاستعطاف مشروعيتها ؛لأنّها اكتفت بالبعد الفني دون الأخلاقي ، في حين جمعت حيل الحب بين البعدين الفني والأخلاقي في آن واحد.

Abstract

This search represented exquisite study discovered about good style of the trickery in the Andalus poesy .The search distributed for three axis's precession with entrance what exhibited in it the linguistic meanings for the trickery and its justifications the religious artistic

In three axis stopping in the sympathy tricks , and in it was the future of bard and his life mortgaged with good style of tricks which may take its results but the tension of bards and he can not control on his temper.

The tricks of contributing and sympathy.pleasure missed its legality, but it contented in the artistic dimention without moralistic,but the love's tricks grouped between the moraltistic and artistic dimension in one time .

and, the mentality . exhibited in the first axis is trIcks of the contributing which discovered unreality of the bards senses .because the single target of the bards is search of the sums without any consider for who give it .

in the second axis we observed the tricks of the love and the pleasure in the love tricks The target was obtained on daling acceptance .but the pleasure tricks target the reaching to any point from the aggravation in the darling body if was woman or man .

مدخل :

الاحتيال إمارة من إمارات الذكاء والفطنة بغض النظر عن الغاية التي يوصل إليها ، وقد جمعت لفظة الاحتيال معاني الحذق وجودة النظر والقدرة على دقة التصرف وأخذ الأمور بالتصرف (١)، والاحتيال إذ يجمع هذه المعاني فأنّه يشترك فيها مع ألفاظ أخرى مثل المكر والخديعة والدهاء ، وهذه الألفاظ تمثل وسائل توصل صاحبها إلى غايات معينة ،وإنّ طبيعة هذه الغايات هي ما تحدّد كون هذه الوسائل – ومنها الاحتيال – مشروعة أو باطلة .

فالحيلة تكون مشروعة حين تستهدف بلوغ غايات نبيلة ، ونستذكر في هذا الإطار حيل قادة المسلمين في معاركهم ضد الكفار التي كانت واحدة من أسباب الانتصار بعد الإيمان بالعقيدة والشجاعة والاستعداد التام للفوز بالشهادة ، وفي معارك المسلمين في الأندلس استعمل أمراء الأندلس حيلا سياسية عسكرية متنوعة (٢) وهي حيل سياسية مشروعة لأنّها أسهمت في إظهار

عز الإسلام وأهله ٠ ويتصل بذلك حيلة مشروعة استعملها الشاعر الأندلسي يحيى بن حكم الغزال (ت٢٥٠هـ) في سفارته إلى بلاد النورمان مواجها بها حيلة ملكهم الذي اعتاد أن يرغم مَن يدخل عليه على الركوع ،فرفض الغزال ذلك الوضع؛ لأنّه مسلم لا يركع إلا لله، فاحتال بأن دخل عليه زاحفا على رجليه ، فقال الملك بعد أن دخل عليه الغزال : هذا رجل من المسلمين أردنا أن يدخل علينا راكعا فقابل وجوهنا بنعليه !(٣) ٠

وتفقد الحيلة مشروعيتها حين تكون وسيلة لصيد الرتب والمناصب بعد غياب الكفاءة والمؤهلات ، ويوثق مؤرخ الأندلس في عهد بني الأحمر لسان الدين بن الخطيب (ت ٧٧٦هـ) إحدى الوقائع التي احتال فيها صاحبها على الولاية فيقول :-

حلفتَ لهم بأنَّك ذو يسارٍ
وذو ثقةٍ وبرّ في اليمينِ
ليستندوا إليك بحفظِ مالٍ
فتأكلَ باليسارِ وباليمينِ (٤)

وتبطل الحيلة التي يروم صاحبها منها الشهرة والظفر بإعجاب الناس حين تكون مبنيّة على التزوير، من ذلك ما يُروى عن الفيلسوف أبي بكر ابن باجة الصائغ التجيبي (ت ٥٣٣هـ) أنّه مات له سَكَن كان يهواه، فبات عند ضريحه مع بعض أصحابه ، وكان قد عرف وقت كسوف البدر بصناعة التعديل ، فاحتال أن زوّر في نفسه بيتين في خطاب القمر أتقنهما ولحنهما ، حتى إذا كان قبيل وقت الكسوف بقليل تغنّى فيهما قائلا :-

شقيقك غيِّب في لحده
وتشرقُ يا بدرُ من بعدهِ
فهلّا كسفتَ فكان الكسوفُ
حداداً لبستَ على فقدهِ (٥)

وتكون الحيلة مسوغةً عند الشعراء المكفوفين ؛لأنّها تمثل آلية دفاعية تتّخذ أشكالا متنوعة مثل الكبت والإسقاط والتعويض والانسحاب وغيرها (٦) فالتعويض مثلا حيلة دفاعية يلجأ إليها الشاعر الكفيف لتحقيق نجاح فني أو معنوي يُغطي على عاهته ، فالإيقاع مثلا يستغله الشاعر الكفيف بوصفه تعويضا سمعيا ولا سيّما التكرار (٧) ٠

ويكون تراسل الحواس في شعر المكفوفين تعويضا عن حاسة السمع (٨) فيمثل حيلة نفسية وفنية ناجحة ترفع عن كاهل أصحابها الحرج في وصف ما يتعلق بحاسة البصر ومتعلقاتها ، ومن شواهد ذلك قول ابن جابر الضرير(ت ٧٤٩هـ) :-

إنشاد نظمك أشهى عند ناظمه
من نظم غيرك لو إسحاق غناهُ

نظمٌ ونثرٌ يهزُّ السامعين له
لو صيغ للدرِ حليٌ كان إياهُ (٩)

ويبدو لنا أنَّ المرأة هي أنجح حيلة تعويضية عند الشاعر الأعمى ؛ لأنّها تفسح المجال أمامه لبث الصور السمعية والشّمّيّة والذوقية في شعره من ناحية ،ولأنّه يحقق بواسطتها في شعره الجنسي ما يعجز عن تحقيقه في الواقع غالبا ((فالأعمى تنهشه الشكوك في أمر رجولته ممّا يدفعه إلى إثبات هذه الرجولة عن طريق الجنس)) (١٠) ولو شعرا٠

وبتنوّع الغايات التي يروم الشعراء الوصول إليها تتنوّع حيلهم، وتأخذ أشكالا متعدّدة ،سنسعى في الصفحات الآتية إلى حصرها وعرضها على وفق المحاور الآتية :-

المحور الأول :- حيل العطاء٠

يلجأ العديد من شعراء الأندلس إلى توظيف بعض الحيل بغية الوصول إلى الممدوح أوّلا ، ثمَّ الظفر بعطائه ، ولكنّهم غالبا ما يصطدمون بحاجز يسبق اصطدامهم بحاجز بخل الممدوح أو قلة عطائه ، يتمثّل ذلك الحاجز بحاشية الممدوح ـ الحاكم من فقهاء ووزراء، فهؤلاء يشكّلون أحيانا حاجزا منيعا دون إسراف الحاكم في العطاء ،وغالبا ما يكون الدافع وراء منع الشعراء من الوصول إلى بلاط الحاكم الحسد أو الخوف من حصول الشعراء الجدد على حظوة عند الممدوح تفوق الحظوة التي يتمتع بها حاشيته ، فتلجا حاشية الممدوح إلى الاحتيال على الشعراء الجدد لإبعادهم عن البلاط ،وبالمقابل يضطر الشعراء إلى الاحتيال للوصول إلى الممدوح ، وتطالعنا في هذا الاتجاه روايتان : الأولى عن أبي العلاء صاعد ابن الحسين البغدادي (ت٤١٠هـ) أنّه كان بين يدي الحاجب المنصور فارتجل بيتين من الشعر في وردة ، فسُرّ بذلك المنصور ، وكان ابن العريف حاضرا ، فحسده ، فقال للحاجب : هذان البيتان لغيره وهما عندي على ظهر كتاب بخطه ، فقال له المنصور :أتتي بالكتاب ،فخرج ابن العريف وركب دابته حتى وصل إلى مجلس ابن بدر ، وكان أحسن أهل زمانه بديهة ، فوصف له ما جرى ،فنظم في الحال هذه الأبيات ، ودسّ فيها بيتي صاعد :

عشوتُ إلى قصر عبّاسة
وقد جدّل النومُ حراسها
٠٠ ٠٠ ٠٠٠٠ ٠٠٠٠٠
٠٠٠٠ ٠٠٠٠٠٠٠٠٠

فطار ابن العريف بهذه الأبيات ،وكتبها على ظهر كتاب بخط مصري ومداد أشقر ، ودخل بها إلى المنصور ، فلما قرأها اشتدّ غيظه على صاعد ، وقال للحاضرين : غدا

أمتحنه (١١)، والرواية الثانية تتعلق بالشاعر ابن هاني الأندلسي (ت ٣٦٢هـ)، فقد رُوي أنَّه قصد جعفر بن علي الأندلسي ملك الزاب من المغرب الأوسط ،فوجد بابه معمورا بالشعراء ، وعلم أنّ وزيره وخوّاصه فضلاء لا يتركون مثله يقرب من ملكهم ؛ فتحيّل بأن تزيّا بزيّ بربريّ ، وكتب على كتف شاه من اللحم :

الليل ليل والنهار نهارُ

والبغل بغل والحمار حمارُ

والديك ديك والدجاجة زوجه

وكلاهما طير له منقار

ووقف بهذا الشعر للوزير ، وقال : أنا شاعر مُفلق أريد أُنشد الملك هذا الشعر ،فضحك الوزير ، وأراد أن يُطْرف الملك به ، فبلغه ذلك الأمر بوصوله إليه ومجلسه غاص ، فلمّا دخل عليه قام وعدل عن ذلك الشعر ، وأنشد قصيدته الجليلة التي يصف فيها النجوم :

أليلتنا إذْ أرسلتْ واردا وحفا

وبتنا نرى الجوزاء في أذنها شنفا

ثمّ مرّ فيها في وصف النجوم إلى أن قال :

كأنّ لواء الشمس غرّة جعفر

رأى القرن فازدادت طلاقته ضعفا

فقام عليه جعفر ، وقال له :بالله أنت ابن هانىء ؟ قال : نعم ،فعانقه ،وأجلسه إلى جانبه ، وخلع عليه ما كان فوقه من الثياب الملوكية ، وجلّ عنده من ذلك الحين (١٢).

ومن الطرافة أن يشارك أحد الشعراء حاشية الأمير في الحد من إسرافه ، فقد رُوي أنّ الحكيم أبا بكر ابن باجة (ت ٥٣٣هـ) حضر مجلس الأمير ابن تيفلويت صاحب سرقسطة ، وألقى بين يديه موشحته التي بدأها بقوله (جرّر الذيل أيّما جر) فلمّا طرق ذلك سمع ابن تيفلويت صاح : واطرباه ، وشقّ ثيابه ، وقال : ما أحسن ما بدأت وما ختمت ، وحلف الأيمان المغلظة ألا يمشي ابن باجة لداره إلا على الذهب ، فخاف الحكيم سوء العاقبة ؛ فاحتال بأن جعل ذهبا في نعله ومشى ! (١٣)

ويمهّد الشعراء لحيلهم المدحيّة بمقدمات مثل بيان أهمية شعر المديح للملوك ، من ذلك قول أبي تمّام غالب بن رباح المعروف بالحجّام (من شعراء عصر الطوائف) :-

فيا للمَلكِ ليس يرى مكاني

وقد كحّلتُ ناظرَهُ بنوري

كما المسواكُ مُطرّحا مُهانا

وقد أبقى جلاءً في الثغورِ(١٤)

والكشف عن علاقة وطيدة بين شعر المديح والممدوحين من الملوك بعيدا عن حسابات

الربح والمنفعة ،كقول شاعر أندلسي مجهول :-

وليس للشعرِ إلا خاطرٌ يقظٌ
يهزُّهُ منك ترفيهٌ وتأييدٌ
وما المدائحُ إلا بالملوك وهل
يُبدي سنا العِقدِ إلا النحرُ والجيدُ (١٥)

وتتنوّع حيل شعراء المديح في اصطياد العطايا وذلك حسب مهاراتهم وثقافتهم وطبيعة ممدوحيهم ، ففي بيتين للشاعر ابن درّاج القسطلّيّ(ت ٤٢١ هـ) تشكّل مهارة الشاعر أثرا واضحا في صقل المديح ؛ إذ يقول :-

حسبي رضاك من الدهرِ الذي عتبا
وعطف نعماك للحظِ الذي انقلبا
يا مالكا أصبحت كفّي وما ملكت
ومهجتي وحياتي بعض ما وهبا (١٦)

البيتان ضمن قصيدة طويلة نظمها الشاعر في مجلس الحاجب المنصور يمدحه بعد أن نجح في اختبار أعدّه له عقب اتّهامه من حاشية الحاجب بسرقة أشعار غيره من الشعراء، ونلاحظ أنّ (لعبة الاحتيال) قد بدأت مبكّرا منذ سماعنا للعبارة الأولى في القصيدة (حسبي رضاك) فقد أراد الشاعر أن يوهم الجميع- وفي مقدمتهم الحاجب المنصور- بأنّ رضا الممدوح حسبه ومبتغاه ليغطي حيلته في البيت الثاني حين يجعل ما ملكت كفّه بعضا من هبات الممدوح ، وهو بهذا يقدّم في الظاهر عذرين لقلة عطاء الممدوح ، والحق أ نّ الشاعر يُغري بهذين العذرين ممدوحه ليوقعه في خديعة اتساع حجم العطاء ؛ لأنّ تغني الشاعر بما ملكت كفه يعني تخليدا لحجم عطايا الممدوح ٠

وتكثر في قصائد المديح التي نظمها ابن درّاج قبل حلول الفتنة في قرطبة الشكوى من العوز والحرمان ، والاضطرار إلى فراق الزوجة بحثا عن كرم الممدوح ، والحق أنَّ هذه المعاني تمثل منظومة متكرّرة من الحيل يوظّفها ابن درّاج لاستدرار العطاء من ممدوحيه وفي مقدمتهم الحاجب المنصور ، ومن شواهد ذلك قوله من قصيدة طويلة في مديح الحاجب المنصور :-

دعي عزمات المستضام تسيرُ
فتنجدُ في عرض الفلا وتسيرُ (١٧)

الشاعر لم يفارق زوجته ولا طفله الرضيع في الواقع ، ولا قطع الصحراء المقفرة في رحلة جنونية ليصل إلى الممدوح ، وإنّما ذلك كله مجرد مؤثرات عاطفية تستهدف تحريك مشاعر الممدوح وعاطفته وصولا إلى كرمه ، غير أنّ الأيام قد ردت على ابن درّاج حيله ؛ إذ سخرت منه سخرية مريرة ((فقد بدأ مذهبه الشعري بالاتّكاء على تصوير فراقه

لزوجه وأطفاله ، وتعلقهم به ،ورقته عليهم في حال الفراق المتخيّل ، ثمّ انتهى إلى التحدث عن هؤلاء الأطفال – أو الأبناء – حديثا مستمدّا من الواقع لا الخيال))(١٨)٠

ويستغل الشاعر ابن اللبانة الداني (ت ٥٠٧هـ) معرفته بالطبيعة الدموية لممدوحه الأمير المعتضد بن عباد(ت ٤٦٢هـ) ، فينجح في تمرير حيلته المدحية قائلا:-

جُد بالقليل وما تدري تجود به
يا ماجدا يهب الدنيا ويعتذرُ(١٩)

يحتال الشاعر على ممدوحه بحيلة (القناعة) ليوهمه بانّه سيقتنع بالقليل من جوده ، وفي هذه الحيلة إثارة لنخوة الممدوح لأنّه – كما صوّره الشاعر – ماجد يعتذر وهو يهب الدنيا ، فكيف سيقنع بأن يهب القليل ؟! وما دام المعتضد طاغية ، فانّه سيهتزّ حتما لهذا الإطراء الذي ينتظره من كل شاعر مدّاح، ممّا سيدفعه إلى تحديد حجم العطاء المناسب لمثل هذا المديح ٠

ونبقى مع طغيان الأمير المعتضد بن عباد وقد قصده الحافظ أبو عمر يوسف بن البر النميري (ت ٤٦٣هـ) من دانية إلى مقر إقامته في إشبيلية ليمدحه بهذه الأبيات :-

قصدتُ إليك من شرق لغرب
لتُبصر مقلتي ما حلّ سمعي
وتعطفك المكارم نحو أصل
دعاكم راغبا في خير فرع
فإنْ جُدتم به من بعد عفو
فليس الفضل عندكمُ ببدع
فوعدك كي يُسكّن خفق قلبي
ويرقأ من جفوني سكب دمعي (٢٠)

إنّ طغيان المعتضد بن عباد قد تجاوز حدود الأندلس حتى وصل إلى القيروان (٢١) وهذا يعني أنّ أهالي مدينة دانية الأندلسية – ومنهم الحافظ النميري – قد بلغت أسماعهم أخبارُ الأمير الطاغية ، ممّا سيجعل الأمير مضطرّا إلى التخلي عن طبيعته الدموية ، والجود على ضيفه من المشرق بالعفو، وبغيره من المكارم ؛ حتى تتطابق – في ذهن الشاعر على الأقل – أخبار المعتضد سمعا وبصرا ،ولا يبقى مجال للشكوك أو الشائعات ٠

وبالطريقة نفسها يُلقي أكثر من شاعر الكرة في ملعب الممدوح ؛ ليضعه أمام خيارين : التصديق على الذكر الطيب بالعطاء أو إضاعة الثناء بالمطل والبخل والتسويف ، بهذه الحيلة يتودّد الشاعر أبو محمد عبدالله الحجاري(شاعر من عصر المرابطين) لممدوحه عبد الملك بن سعيد قائلا :-

عليك أحالني الذكر الجميلُ
فجئتُ ومن ثنائك لي دليلُ (٢٢)

ومثلـه الشـاعر أبـو جعفـر بـن أحمـد (مـن شعراء الذخيرة) مستنجزاً بعض الوزراء :-

عِداتٌ مثل ما ابتسم الحسانُ
وتسويفٌ كما عبس الزمانُ
وقد خبّرتُ نفسي عنك خيراً
وأحرِ بأنَّ يصدّقني العيانُ(٢٣)

إنَّ حيل المديح في النصوص المتقدمة تلتقي جميعا في غاية واحدة هي المنفعة، والكسب المادي ، فإذا انقطع الرجاء عند الشاعر وقلّت حيلته انقطع المديح ، إلى هذا المعنى يُشير الشاعرأحمد ابن وضاح(ت ٥٤٢هـ) بعد أن قطع ممدوحه عنه ما كان يعتاده منه من الإحسان ، فقابل ذلك بقطع مدحه له ، فبلغه أنَّه عَتَبَهُ على ذلك ، فردَّ عَتَبَهُ عليه قائلا :-

هل كنتُ إلا طائراً بثنائكم
في دوح مجدكمُ أقوم وأقعدُ
إن تسلبوني ريشكم وتقلّصوا
عنّي ظلالكمُ فكيف أغرّدُ (٢٤)

ويُصرّح أكثر من شاعر بأنَّ حيله لم تجنِ ثمارها من النوال ، قال أبو عبدالله محمد بن خلصة الضرير(ت ٤٧٠هـ) :-

خدمتكم ليكون الدهر من خدمي
فما أحالته عن حالاته حِيَلي
إن لم تكن بك حالاتي مبدّلةً
فما انتفاعي بعلم الحال والبدلِ (٢٥)

ويكشف الشاعر أبو بكر يحيى بن بقي القرطبي (ت ٥٤٠هـ) عن خيبة أمل كبيرة ، فيقول :-

ما العيش بالعلم إلا حيلة ضعفتْ
وحِرفة وُكِلت بالقُعْدَدِ البَرِمِ (٢٦)

إنَّ العلاقة القائمة بين طرفين : الشاعر والممدوح هي نوع من التحايل والخداع ، قال الشاعر أبو أحمد بن ليون التجيبي(ت ٧٥٠هـ) :-

ودُّ مَن يصطفيك للنفع زورُ
والجميل الذي يُريك غرورُ
إنَّما الودُّ ودّ مَن ليس يخشى
فيك ممّن يلوم أو مَن يضير(٢٧)

لذلك يُنزّهُ الشاعر الرمادي(ت ٤٠٣هـ) نفسه عن الخديعة والاحتيال ؛ليؤكّد لممدوحه أبي علي القالي أن ودّهُ خالص لا زور فيه :-

يا سيّدي هذا ثنائي لم أقل
زوراً ولا عرّضتُ بالتنويلِ

مَن كان يأمل نائلا فأنا امرؤٌ
لم أرجُ غير القرب في تأميلي (٢٨)

إنَّ حيل العطاء كانت دليلا على زيف إحساس الشاعر تجاه ممدوحه؛ لأنَّ ما يهم الشاعر في النهاية هو الحصول على العطاء بغض النظر عن هوية صاحبه ٠

المحور الثاني :- حيل الحب واللّذة :-

تشبّث الشعراء في غزلهم العفيف وغزلهم الحسي بأنواع من الحيل بغية الوصول إلى رضا المحبوب عند شعراء العفة ، والحصول على قبلة أو أكثر من ذلك عند شعراء اللذة ٠

ومن أطرف حيل الغزل العفيف (محكمة الحب) ، وهي محكمة شعرية أقامها شعراء العفة بعد أن أضناهم شغفهم بالمحبوب، فاتخذوها حيلة للحصول على رضاه ، وفيها جعلوا جمال المحبوب قاضيا أمر بتحرير عقد الهوى بين الطرفين ، كما يقول الكاتب محمد بن أبي بكر بن محمد بن أحمد بن قطبة (من شعراء عهد بني الأحمر) :-

خطَّ قاضي الحسن في رسم الهوى
فاكتفى عقد هواك واستقل (٢٩)

غير أنَّ هذا القاضي الذي يُفترض فيه العدل ، ليس عادلا ، قال الأديب أبو الوليد إسماعيل بن محمد (من شعراء الذخيرة) :-

حِمام بلحظك قد حُمَّ لي
فما زال يهدي إلى مقلتي
فهذا أنا قاضٍ بداء الهوى وقاضي
جمالتك لم يعدل (٣٠)

ويُبدي الأمير المعتمد بن عباد(ت ٤٨٨هـ) رضاه التام على قاضي الجمال على الرغم من جوره على محبيه ، فيقول في نزعة عذرية مُحبّبة :-

حكّمه في مهجتي حسنه
فطلَّ لا يعدل في حكمهِ
أفديه ما ينفكُّ لي ظالما
يا ربِّ لا يُجزَ على ظلمهِ (٣١)

وتستقبل محكمة الحب دعوى قضائية تُجرّم المحبوب لسفكه دماء محبيه بالألحاظ، منها هذه الدعوى التي رفعها الوزير الكاتب أبو حفص عمر بن الشهيد(ت بعد ٤٤٠هـ) :-

تعلّم لحظك سفك الدماءِ
وأنت تعلّمتَ ألا تدي (٣٢)

ويقوم الشعراء بدور المحامين ، فينتزعون من خد المحبوب – على سبيل الاحتيال – شاهدا موثوقا على سفكه للدماء

، وبذلك يحتالون على المحبوب ، ومنهم الشاعر أبو مروان عبد الملك بن رزين(ت ٤٩٦هـ) :-

فبحقِّ ما فيك من لعس (م)
ومن ثغرٍ برودِ
أدَمي يضيع وشاهدا
خدّيك في عقد الشهودِ (٣٣)

والشاعر أبو الفضل جعفر بن محمد بن شرف (ت ٥٣٤ هـ) ، قائلا :-

أنكرتَ ما أتلفتِهِ من مهجتي
ودمي بخدّكِ شاهدٌ مقبولُ (٣٤)

وأمام ظلم قاضي الجمال اضطرَّ الكاتب أبو الوليد حسان بن المصيصي(من شعراء عصر الطوائف) إلى الاحتكام عند أحد الممدوحين، وهو ابن جمهور المرتضى، شاكيا إليه فرط الهوى قائلا :

شكوتُ إليه بفرط الدّنف
فأنكر من علّتي ما عرفْ
وقال الشهود على المدّعي
وأمّا أنا فعليّ الحلف
فجئنا ابن جمهور المرتضىْ
فقيه الملاح وقاضي الكلف
وكان بصيرا بحكم الملاح
ويعلم من أين أكل الكتف
فأومى إلى الخدّ أن يُجتنى
وأومى إلى الريق أن يُرتشف (٣٥)

في هذا النص يكون الهدف من الاحتيال مزدوجا : الانتصاف من ظلم المحبوب ، والفوز برضا الممدوح ، ولعلّ الهدف الثاني هو ما يسوغ وجود النزعة الحسية في البيت الأخير التي تتنافى مع مبدأ العفة في الغزل العفيف ، وكأنَّ الشاعر يريد أن يُثبت للمحبوب ، ولغيره من الناس عدل الممدوح ، وكرمه ، وإنصافه لرعيته حين يّعطيهم أكثر ممّا يطلبون !

ويكشف شعراء الغزل بنوعيه الحسي والعفيف عن الحيل التي يوظّفها المحبوب لاصطياد محبيه ، فيذكر الشاعر صفوان بن إدريس التجيبي (ت٥٩٨هـ) حيل العيون بنظراتها ، ولمحاتها الخاطفة ،وهي من أبرز الحيل التي تستعملها المرأة في اصطياد قلوب الرجال :-

ملكتني في دولة من صبا
وصِدتني في شَرَكٍ من حدقْ (٣٦)

مفارقة طريقة أن يكون الشاعر في آن ملكا يتربع على عرش دولة الصبا ، وعبدا أسيرا في شرك الأحداق !! إنَّها حيل المرأة في التلاعب بمشاعر مَن يهواها من الرجال ٠

والتظاهر بالخجل حيلة ماكرة تردُّ فيها المرأة على شكوى عاشقيها ، ولكنّها حيلة مكشوفة للشاعر أبي ساكن حامد بن سَمَجون (من شعراء عصر الطوائف) :-

أشكو ولا ترحمني دائما
كما شكا البحرُ لعصف الرياحْ
وتُظهر الخجلة مكْرا كما
تخجل عند القطع بيض الصفاحْ (٣٧)

و(الدموع) عند المرأة حيلة مشهورة تُغطي بها ظلمها لمحبّيها ، وهي حين تصطنع البكاء تؤدي دورا مزدوجا هو دور الضحية والجلاد معا ، وهذا ما يستفز العاشقين ، ومنهم أبو بكر محمد بن سعيد صاحب أعمال غرناطة في مدّة الملثّمين(ت٥٣٩هـ) :-

يا هذهِ لا ترومي
خداع مَن ضاق ذرعُهْ
تبكي وقد قتلْتني
كالسيفِ يقطر دمعُهْ (٣٨)

وفي أبيات للشاعر ابن جابر(ت ٧٤٩هـ) تبدو المرأةُ مضطرّةً إلى المكر أمام شهوة الشاعر الضرير ، وهو يقول :-

فتاة تفتُّ القلب مني بمقلة
لها رقـتَهُ الغزلان في سطوة الأُسدِ
تمنيتُ أن تهدي إليّ نهودها
فقالت رأيتُ البدرَ يهداهُ أو يهدي
فقلتُ أللرّمانِ بدٌّ من الجنى
فتاهت وقالت : باللواحظِ لا الأيدي (٣٩)

أمام الإلحاح المتواصل من الشاعر على قطف رمان النهود ، اضطرت المرأة إلى البحث عن حيلة تدفع عن جسدها شهوة الشاعر الضرير ؛ فقد صدمته بحجة عقلية مقبولة هي أنَّ الهدايا
تُعطى للمرأة لا تُطلب منها ، ظنّاً منها أنَّ الشاعر سيقنع بما تقول ، لكنه يلحُّ من جديد في طلبه ؛ فتعمد المرأة إلى المراوغة ؛ فهي لم ترفض طلب الشاعر الأعمى مباشرة لكنّها استعملت الحيلة لمنعه من الوصول إلى ما يريد فقالت له : إنَّ رمانتيها للنظر وليستا للّمس ، وهذهِ حيلة ماكرة لأنَّ الشاعر كان ضريرا ، وهنا قد تكون الحيلة صناعة من الشاعر ليحتال بها على المتلقي ؛ لأنّ فيها مسوغاً للحديث عن معنى فاحش يرغب الشاعر في نظمه ، أو تكون المرأة في هذا النص حيلة تعويضية عن عاهة العمى لإبراز قدرة الشاعر الجنسية كما سبقت الإشارة إلى ذلك من قبل ٠

ويُعدُّ (الخضاب) حيلةً يمكن أن نسمّيها (حيلة زمنية)؛ لأنّها تعمل على إخفاء أثر الأيام في شعر الرجال ، والخضاب أداة من أدوات الزينة ، ووسيلة من وسائل الإغراء عند المرأة ، لكنّه يتحول على يد الشعراء إلى خديعة ، وتزوير، واحتيال ، نجد مصداق ذلك في قول ابن وهبون (ت ٤٨٠هـ):-

ولمّا رأيتُ الزورَ في الناسِ فاشياً
تخيَّلَ لي أنَّ الشباب خضابُ (٤٠)

وقول ابن جابر الضرير (ت ٧٤٩هـ):-

وإن بدا صبح المشيب فاطّرِحْ
ما كان إذْ ليل الشباب قد غسا
ولا تظنّ الشيب يرجى طبّه
بزور صبغ أو مُدام يُحسى
إذا الفتى قوّس واعتدّ العصا
لقوسه عن وتر أعيا الأُسا (٤١)

ولكنّ الخضاب يبقى حيلةً لا تمرُّ بسهولة على النساء مهما حاول الشاعر إحكامها ، لذلك يكون ردُّ فعل المرأة قاسيا حين تكتشف هذهِ الحيلة ، نلمس مثل هذا الرد في سخرية غير رفيقة جُوبه بها الشاعر الضرير الحُصَري القيرواني(ت ٤٨٨هـ) من امرأة اجتهد في خداعها بالخضاب :-

خضبتُ الشيب أخدعها فقالت
تشبّهت الحمامة بالغرابِ (٤٢)

وحملت أبيات الشاعرة أم العلا بنت يوسف الحجارية(عاشت في القرن الخامس الهجري) سخريةً مُشابهةً ، وهي تردُّ على رجل أشيب عشقها ، وطلب منها الزواج :-

الشيبُ لا يُخدَعُ فيه الصبايا
بحيلة فاسمعْ إلى نُصْحَى
فلا تكن أجهلَ مَن في الورى
يبيتُ في الجهل كما يُضحَى (٤٣)

ويتفنّن الشعراء الذين يبحثون عن لذة (القبل) في البحث عن الحيل التي تُوصلهم إلى ثغر الحبيب العذب أو خدّه اليانع ، ومنهم الشاعر ابن خاتمة الأنصاري (ت ٧٧٠هـ) الذي اهتدى إلى هذهِ الحيلة ، فقال :-

أومي بفيٍّ لتقبيل الصِّبا ولَها
أقول شوقا عساها قبّلت فاكِ (٤٤)

وأيّة حيلة اهتدى إليها الوزير أبو الفضل محمد بن عبد الواحد الدارمي (ت ٤٥٤ هـ) أتاحت له فرصة تقبيل ثغر المحبوب دون أن يشعر به أحد حتى المحبوب نفسه ؟! :-

ظبيٌ إذا حرّك أصداغه
لم يلتفت خلْقٌ إلى العطرِ
غنّى بشعري منشدا ليتني
اللفظ الذي أودعتّه شعري
فكلّما كرّر إنشادَهُ
قبّلته فيهِ ولم يدرِ (٤٥)

ويوظف الشاعر أبو العلاء صاعد بن الحسين(ت ٤١٠هـ) ثقافته الفقهية ليقطف تفاحة من وجنة مَن يُحب دون إثم أو حرج :-

ومهفهفٍ أبهى من القمر
قهر الفؤاد بفاتن النظرِ

خالسته تفاح وجنته
فأخذتها منه على غرَرِ
فأخافني قومٌ فقلتُ لهم :
لا قطع في ثمَرٍ ولا كُثَرِ (٤٦)

ونجد في أشعار فقهاء الأندلس نوعا من الحيل أطلق عليها المستشرق هنري بيريس (حيل فتوى فقهية غرامية) (٤٧) ، وتصادفنا في ديوان الفقيه المفسر أبي حيان الأندلسي(ت ٧٤٥هـ) واحدة من الحيل الفقهية في قوله متغزّلا :-

أقبّله فيرشفني رضابا
تبقّت فيه آثار المدامِ
سقانيها الحبيب ولستُ أدري
لذلك قد خلصتُ من الأثامِ (٤٨)

إذا كان الفقيه المفسر أقنعنا ببراءتة من إثم شرب الخمر ، فأنّه وقع في إثم آخر هو رشف ثغر الحبيب إلا إذا كان الأخير زوجةً أو جاريةً من ملك اليمين ٠

إنَّ حيل الغزل الحسي تحمل بعدا لا أخلاقيا ،لأنّها تستهدف اللّذة في نزعة شهوانية مقيتة خلافا لحيل الغزل العفيف التي حمَلتها العفة بُعدا أخلاقيا وفنيّا في آن ٠

المحور الثالث : حيل الاستعطاف : –

يتطلّب موقف الاستعطاف حشد أكثر عدد ممكن من وسائل الإقناع والتأثير؛ لنيل رضا المستعطَف وقبوله؛ لأنّ هذا الموقف يتوقف عليه غالبا مستقبل المستعطِف وربّما حياته ! إنَّ حيل العطاء، وحيل الحب واللذة عندما تفشل فأنّ صاحبها يخسر كرامته أو يخسر حاجة روحية أو متعة جسدية ولكنَه في الأحوال كافة لن يخسر حياته خلافا لحيل الاستعطاف التي تتوقف عليها غالبا حياة المُستعطِف ٠

إنَّ الشاعر الذي يعيش تجربة السجن بسبب ذنب اقترفه أو بسبب الوشايات والمكائد يعاني الخوف والقلق، ويكون في حاجة ماسة جدا إلى الأمان والطمأنينة، وقلّما يستطيع السيطرة على انفعالاته ومشاعره؛ فيكون مضطربا ومشوّشا ،وهنا يكمن الفارق في الشخصية والحنكة بين شاعر وآخر ، فشاعر يستطيع أن يتحكم في انفعالاته ويُخفي خوفه، وقلقه، واضطرابه ، وشاعر آخر يتخبط في تصرفاته ممّا يُفسد عليه فرصة الفوز بالعفو ٠

ومن الشعراء الأندلسيين الذين عانوا مرارة تجربة السجن الحاجب المصحفي جعفر بن عثمان (ت ٣٧٢هـ)، والوزير الشاعر ابن زيدون(٤٦٣هـ) ، والشاعر ابن عمار(٤٧٧هـ) ، وحاول كل شاعر منهم أن

يحظى برضا مَن سجنه عن طريق المديح، والثناء، وتوظيف أكثر من حيلة اعتمادا على فهْم نفسية المُستعطَف ،وطبيعة العلاقة معه٠

لقد سُجنَ جعفر بن عثمان المعروف بالحاجب المصحفي على بد المنصور بن أبي عامر المشهور بالحاجب المنصور(ت ٣٩٢هـ) ، وكان الأول صاحب فضل ومنّة على الأخير ، غير أنّ الأخير جحد الفضل وزجّ صاحبه في السجن ؛ لأنّه كان يرى فيه عقبة كبيرة في طريق وصوله إلى السلطة ، وقد كان الحاجب المنصور يُسيئ معاملة الحاجب المصحفي فيسجنه مدّة من الزمن، ثمَّ يُطلق حريته، وبعد مدّة يُعيده إلى السجن مرّة أخرى ، وقد نظم المصحفي في سجنه شعرا استعطف به الحاجب المنصور، منه قوله :-

هبني أسأتُ فأين الفضل والكرمُ
إذ قادني نحوك الإذعانوالندمُ
يا خير مَن مُدّت الأيدي إليه أما
ترثي لشيخ نعاه عندك القلمُ
بالغتَ في السخط فاصفح صفح مقتدرٍ
إنَّ الملوك إذا ما استرُحموا رَحموا (٤٩)

المصحفي خير مَن يُدرك إنّ الحاجب المنصور وصل إلى السلطة بالغدر، والقتل، والمؤامرات، فهو طاغية جبار؛ لذلك يحتال عليه بمخاطبته بالمعاني التي تثير مكامن الطغيان في نفس كل طاغية، والتي توحي إليها العبارات (قادني نحوك الإذعان والندم ،يا خير مَن مُدّت الأيدي إليه ، اصفح صفح مقتدر) ، وتمثل عبارة (إنّ الملوك إذا ما استرحموا رحموا) أبلغ حيل الشاعر في هذا النص؛ لأنّها في نظر الحاجب المنصور اعتراف من أستاذه الذي ساند في أول خطوة من خطوات الوصول إلى السلطة بأنّه واحد من الملوك الذين يزدادون رفعة وجلالا بنجدة مستصرخيهم ورحمة مَن يسألهم اللطف والرحمة !

غير أنّ النص نفسه يحوي عبارات تشير إلى توتر الشاعر، وانفعالاته، واضطراب مشاعره بين رغبة في الاستعطاف ،وسخط على المستعطَف مثل عبارة (هبني أسأت) التي تشكك في قدرة المستعطف على التمييز بين الأمور ، وعبارة (أين الفضل والكرم) التي توحي بافتقار المخاطَب إلى بُعد النظر ، وعبارة (نعاه عندك القلم) ؛ لأنّ من أشد ما يُزعج الطغاة أن يوجَّه المديح إلى غيرهم ، وعبارة (بالغت في السخط) لما فيها من توبيخ للمخاطب ، فكان تأثير هذهِ العبارات سيئا في نفسية المنصور ،لأنّه طاغية ليس من السهل أن يُخدع بحيلة (إنّ الملوك إذا ما استرُحموا رحموا) بعد أن صُدمَ في أول الأبيات بعبارتي (هبني أسأت) و (أين الفضل والكرم) ٠

وفي سجن أمير قرطبة أبي الحزم بن جهور(ت ٤٣٥هـ) قضى ابن زيدون

خمسمائة يوم من عمره سجينا بتهمة التآمر على قلب نظام الحكم في قرطبة ، وقيل بتهمة أخرى هي اغتصاب أحد العقارات ، وفي السجن نظم الشاعر الوزير أكثر من قصيدة يستعطف بها الأمير أبا الحزم بن جهور ليعيد إليه حريته موظفا ثقافته المتنوعة ، وحجج العقل والمنطق ليصوغ منها حيلا قد توصله إلى الحرية ، منها حيلة القدر الذي يؤخر عطف الأمير ، وإلا فأنّ الأمير سمح الخلق، وسهل الرضا ، ينقاد للعتب بيسر وسهولة :-

وإنْ يُثبِّطْ – أبا الحزم الرِّضى – قدَرٌ
عن كشف ضُرّي فلا عتب على القدَر
. . . . . .
. . . . . .
ذو الشيمة الرَّسل إنْ – هيجت حفيظتُه
– والجانب السهل والمُسْتَعْتَب

اليَسر(٥٠)

إمّا الشاعر فيحتال بأنّه بشر يُخطي ويُصيب ، وعندما يُخطي فأنّه يطلب الصفح من سيّده الأمير الذي يجب عليه أن يعفو عن المخطئين من رعيته ؛ لأنّ السيادة يُزينها الصفح والغفران :-

هبني جهلتُ فكان العِلق سيّئةً
لا عذر منها سوى أنّي من البشرِ
إنّ السيادة بالإغضاء لابسة
بهاءها ، وبهاء الحسْن في الخضرِ
(٥١)

يوُظّف الحيلة نفسها في قصيدة أخرى مصوّرا عفو الممدوح أمرا مألوفا لا يحتاج إلى تسويغ :-

ولو أنّني واقعتُ عمدا خطيئةً
لما كان بدْعا من سجاباك أنْ تُمْلي (٥٢)

ولكي تُستكمل (بلاغة الاحتيال) يجب أن تكون (مشيئة) الممدوح في النهاية هي الفيصل في قرار العفو بعيدا عن تأثير القدر :-

بأبي أنت أن تشأ تكُ بردا
وسلاما كنار إبراهيمِ (٥٣)

ولكي يكون الممدوح فاضلا عليه أن يُكمل فضله، ويمنح الشاعر مرتبة الوزارة، وتمام الفضل والمكرمة هو العفو والغفران :-

ومتى تبدأ الصنيعة يُوْلِغْ
-كَ تمام الخصال بالتتميمِ (٥٤)

إنَّ قصائد الاستعطاف عند الشاعر ابن زيدون لم تكن خالية من الإساءات الموّجهة إلى الأمير أبي الحزم بن جهور، ممّا يدل على توتر الشاعر، وانفعاله، وطبيعة علاقته بالأمير ، فالشاعر يُسيئ الظن بأميره حين يقول :-

حُرمتُ منهُ وحُظَّ الناس كلّهمُ

لهذهِ العبرةِ الكبرى من العبَرِ (٥٥)

ويهدد باللجوء إلى ممدوح آخر يُقدّر مكانته :-

سيُعنى بما ضيّعت منّي حافظ

ويُلقى لما أرخصتَ من خطرَي مُغلي (٥٦)

ويُجابه رفضه العفو بالسخرية قائلا :-

لا تلْهُ عني فلم أسألك مُعتسفا

ردَّ الصِّبا إيفاءً على الكِبَرِ (٥٧)

فأين هذا من قوله في القصيدة نفسها يمدحه بالبديهة اللماحة التي تُغنيه عن التفكير الطويل ، وتقليب النظر في الأمور قائلا :-

أغنت قريحته مغنى تجاربه

ونابت اللمحة العجلى عن الفِكَرِ (٥٨)

ويُتقن ابن زيدون جيدا لعبة خلط الأوراق على الممدوح حين يخدعه بالقول :-

أأنكث فيك المدح من بعد قوّة

ولا أقتدي إلا بناقضة الغزل ؟ (٥٩)

والحق أنّ الشاعر ابن زيدون كان مخادعا لأميره أبي الحزم بن جهور ، والدليل أنّه نظم قصيدة في مديح الأمير أبي الوليد بن جهور الذي ساعده على الفرار من السجن ثمَّ توّسط لدى والده الأمير أبي الحزم ليعفو عن الشاعر ، أشار فيها إلى أنَّ عطايا الأمير أبي الوليد قد وصلت إليه دون رجاء أو حيلة :-

أقبلتْ نُعماك تُهدي نفسها

لم أرِعْ حظّيَ منها بالحيلْ (٦٠)

في إشارة واضحة إلى العلاقة الودية بين الطرفين ، وقد أراحنا ابن زيدون من عناء البحث عن دليل آخر في شعره عن زيف شعوره تجاه الأمير أبي الحزم بن جهور حين جهر له بالقول بعد دخوله السجن :-

قُلْ للوزير : وقد قطعتُ بمدحه

زمني فكان السجن منه ثوابي

لا تخشَ لائمتي بما قد جئتَه

من ذاك فيَّ ولا توقَّ عذابي

لم تُخطِ في أمري الصواب موفّقا

هذا جزاء الشاعر الكذابِ (٦١)

الشاعر يُصرّح بأنَّه مدح الأمير بمآثر ليست فيه فاستحقَّ منه الجزاء العادل وهو السجن . إذا كان ابن زيدون يُصرّح بزيف مديحه للأمير أبي الحزم بن جهور قبل أن يسجنه ، فأنّنا لا يمكن أن نصف قصائده في استعطاف هذا الأمير – وهو في السجن – إلا بانّها قصائد زور، وغش، وخديعة، واحتيال .

أمّا ابن عمار فقد كان سياسيا لبِقا ، ذا معرفة بأحوال الحكام والناس ، وقد توطّدت علاقته بأمير إشبيلية المعتمد بن عباد منذ أن كان وليّا لعهد والده المعتضد حتى أصبح أميرا لأشبيلية فقرّبه منه وجعله وزيره الأول وصاحب مشورته ، غير أنّ ابن عمار كان ذا طموح أكبر وأبعد لم يقنع بمرتبة الوزارة بل

وجد في نفسه مؤهّلات الزعامة والإمارة لذلك فأنّه بعد أن استولى على مدينة مُرسيّة تمرّد على المعتمد وقطع صلته به ، وأخذت العلاقة بين الطرفين تسوء حتى وصلت إلى التهاجي بالأعراض ، وشاءت الأقدار أن يقع ابن عمار أسيرا في قبضة بني سهيل أصحاب قلعة شقورة عام ٤٧٧هـ ، فلما سمع المعتمد بذلك أرسل إليهم بالمال لشراء ابن عمار منهم ، فتمَّ له ما أراد .

لقد كان ابن عمار كثير المكر والدهاء ، وقد افتخر بذلك فعندما نكث ابن عبد العزيز أمير بلنسية العهدَ الذي عاهده عليه توعّده ابن عمار بالويل والثبور ، مؤكّدا أنّه هو السياسي الفطن الخبير بأنواع المكائد والحيل :-

كيف التفلتُ بالخديعة من يدي
رجل الحقيقة من بني عمارِ
طبِنٌ بأغراض الأمور مجرّب
فطِنٌ لأسرار المكائد دارِ (٦٢)

وقد كان الشعر عند ابن عمار ((وسيلة لتحقيق آماله وبلوغ مآربه ، وقد كانت غاياته تنحصر في كسب المال والجاه، والحصول على المنصب، والتقرب من السلطان)) (٦٣) ، فلما تعرّض للسجن بسبب غدره بالمعتمد كان لا بدَّ أن يُوظّف شعره ((السلاح الوحيد الذي يمتلكه في تلك اللحظة)) (٦٤) لينال عطف المعتمد وعفوه، ورضاه ؛ لأنّ ذلك كله سيكون الخطوة الأولى لتحقيق الآمال التي عاش من أجل الوصول إليها .

وتعد حائية ابن عمار أشهر قصائد الاستعطاف في شعره خاصة، وفي الشعر الأندلسي عامة ، جاء فيها :-

سجاياك إنْ عافيتَ أندى وأسمحُ
وعذرك إنْ عاقبتّ أجلى وأوضحُ
وإنْ كان بين الخطتين مزيّةٌ
فأنتَ إلى الأدنى من الله أجنحُ (٦٥)

الشاعر الذكي يُدرك أنّ الأمير المعتمد يملك الحاسة السادسة التي تلتقط ما وراء الألفاظ من ظلال ومعانٍ ، والمعتمد بدوره يُدرك أنّ ابن عمار السياسي رجل غادر لا يستحق المغفرة ؛ فلم يبقَ أمامه سوى ابن عمار الشاعر، لذلك فهو يُصغي إليه بأذني الناقد الواعي لا الحاكم المستعطف ، وهذا هو الوتر الذي يضرب عليه الشاعر ، ففي البيت الأول حقق الترصيع توازنا صوتيا ودلاليا بين احتمالي العفو والعقوبة ، غير أنّ البيت الثاني يُرجّح كفّة الاحتمال الأول بدلالة اسم التفضيل (أجنح) على أنّ فعل الصفح خالص لله عزَّ وجل ، وإذا كان الشاعر لا يستطيع أن يُنكر ذنبه فأنّه يوظّف اعترافه بالذنب ليكشف عن أنّ حلم الممدوح أكبر من ذنبه :-

نعم ليَ ذنب غير أنَّ لحلمه
صفات يزلّ الذنب عنها فيسفحُ

ويستعين الشاعر بأحد الأمثال ليكشف عن أنّ حكم الوشاة فيه يعكس ديدنهم ، ممّا يُشكل حيلة يمكن أن تُختبر بها أصالة الممدوح نفسه :–

ولا تلتفت رأي الوشاة وقولهم

فكلُّ إناء بالذي فيه يرشحُ

ويُجيد الشاعر المزاوجةَ بين احتمالي العفو والعقوبة قائلا :–

وقالوا سيجزيه فلان بفعله

فقلتُ وقد يعفو فلان ويصفحُ

ألا إنّ بطشا للمؤيد يُرتجى

ولكنّ حلما للمؤيد أرجحُ

إنّ سين الاستقبال في قوله (سيجزيه) تُرجّح احتمال العقوبة بدلالتها على المستقبل القريب مقابل (قد) التي تفيد التقليل في قوله (قد يعفو)، غير أنّ تقابل الفعلين (يعفو ويصفح) مع الفعل (سيجزيه) يقوّي احتمال العفو ولو بالمستقبل .

وإذا كانت (ألا) الاستفتاحية تنبّه مع (إنّ) المؤكدة إلى أنّ بطش المعتمد بالشاعر احتمال قائم ، فأنّ الاستدراك ب (لكن) يؤكد كذلك أنّ حلم المعتمد هو الأرجح بدلالة البنية الصرفية لاسم التفضيل (أرجح) التي تُعدّ أقصر زمنيا إلى قرار المعتمد من بنية الفعل (يُرتجى) !

ونصل مع الشاعر إلى القمة البلاغية للاحتيال في قصيدته عندما يعني المعتمد في قوله :–

وبين ضلوعي من هواه تميمة

ستنفع لو أنّ الحِمام مُجلّحُ

وسنترك ابن بسام يحدثنا عن بلاغة الاحتيال عند ابن عمار في هذا البيت تحديدا :–

((بلغني أنّه لمّا وصلت هذهِ القصيدة إلى المعتمد جعل مَن بحضرته من أعداء ابن عمار ينتقدونه ، ويطلبون به عيبا له يجدونه ،فجعلوا يقولون : أي معنى أراد ،ما قال شيئا ولا كاد ، فقال لهم المعتمد : مهما سلبه الله من المروءة والوفاء ، فلم يسلبه الشعر ، إنّما قلَب بيت الهذلي فأحسن ، وهو قوله :–

وإذا المنية أنشبت أظفارها

ألفيتَ كلّ تميمة لا تنفعُ

فسكت القوم في ناديهم ، وسُقِطَ في أيديهم)) (٦٦)

وكاد ابن عمار أن يُدرك عفو المعتمد ببلاغة حيله لولا أنّه استعجل الأمر، وأشاع شعرا للرشيد ابن المعتمد أنّ والده سيعفو عنه قريبا ، وفشا الخبر بسرعة بين الناس ، فلمّا وصل مسامع الأمير المعتمد ازداد حنقا وغضبا على ابن عمار ، فذهب غليه مسرعا وفي يديه فأس ، فلما دخل على ابن عمار انهال عليه ضربا بالفأس حتى قتله !

إنّ حيل الاستعطاف عند الحاجب المصحفي وابن زيدون – على بلاغتها – لم تُجدِ نفعا ؛ لأنّها صدرت عن نفس منفعلة تحتقر المستعطَف ؛ لذلك لم تتوانَ في الإساءة إليه مع عظيم حاجتها إلى عطفه ،

أمّا ابن عمار فقد كان أكثر ضبطا للنفس، وسيطرة على انفعالاته ؛ لذلك وظّف موهبته الكبيرة وثقافته المتنوعة في ترتيب حيله ، وكاد أن ينجح في الإيقاع بالممدوح على الرغم من فطنة الأخير وحنكته .

***

إنّ حيل العطاء، والحب واللذة، والاستعطاف قد تنفع الشعراء في إنقاذ حياتهم أو الحصول على مكاسب دنيوية ،ولذات معنوية وحسية ، غير أنّها لن توصلهم إلى المعالي ؛ لأنّ المعالي لا تُنال بالحيل مهما كانت بلاغتها ، وإنّما تُنال بالاجتهاد والعمل الصالح ، قال أبو جعفر الرعيني (ت ٧٧٩هـ) :-

رُتب المعالي لا تُنال بحيلةٍ
يوما ولو جهد الفتى أو طارا (٦٧)

الخاتمة

الاحتيال مؤشر قدرة على دقة التصرف ، ووسيلة وصول إلى غاية ما ، ويُضفي شرف الموقف، ونبل الغاية مشروعية على الاحتيال ، وبخلافهما تنتفي عنه هذهِ المشروعية ،ويبقى مجرد غشٍ وكذب .

لقد حمل الاحتيال بعدين : أحدهما خُلقي، والآخر فني ؛ ففي حيل العطاء غاب البعد الخُلُقي ؛ لأنّ غايتها الحصول على النوال فقط ممّا يكشف زيف إحساس الشاعر ، ذلك الزيف الذي يختفي وراء بلاغة الاحتيال ، وفي حيل الغزل الحسي افتقدنا البعد الأخلاقي لأنّها استهدفت اللذة تحت غطاء ما هو فني وبليغ .

أمّا حيل الاستعطاف فقد كانت الأقرب إلى الكشف عن إحساس الشاعر بغض النظر عن حقيقة مشاعره تجاه المستعطَف ؛لأنّ على نجاحها يتوقف مستقبل الشاعر وبقاؤه على قيد الحياة .

وحملت حيل الغزل العفيف بعدا أخلاقيا وفنيا معا لأنّها جمعت بين العفة والبلاغة .

إنّ ترتيب الحيل على وفق مستويات بلاغتها يجعلنا نضع حيل الحب واللذة في المستوى الأول، تليها حيل الاستعطاف، ثمّ حيل العطاء .

الهوامش

(١) يُنظر : المُخصّص ، أبو الحسن ابن سيدة (ت٤٥٨هـ) :مـج١ ، السفر الثالث ، ص٢٢، مادة حول ، لسان العرب ، ابن منظور (ت ٧١١هـ) : مادة حول ، المعجم الوسيط : ج١ ، ص٢٠٨ مادة حول .

(٢) يُنظر : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، أحمد بن محمد المقري التلمساني (ت١٠٤١هـ)، تحقيق الدكتور إحسان عباس : ٣ / ٨٥ ، حيلة سياسية للحاجب المنصور .

(٣) يُنظر : يحيى بن حكم الغزال ، محمد صالح البنداق : ١٢٩– ١٣٠

(٤) ديوان لسان الدين بن الخطيب (ت٧٧٦ هـ) تحقيق الدكتور محمد مفتاح :٢ / ، ويُنظر في المعنى نفسه : نفح الطيب : (٦ / ١١٢) أبيات للشاعر عبدالله بن رضوان من أهل مالقة كان معاصرا لابن الخطيب .

(٥) يُنظر : نفح الطيب : ٧ /٢٥

(٦) يُنظر : المدخل في علم النفس ، د. هاشم جاسم السامرائي : ١٣٧ وما بعدها

(٧) يُنظر : شعر المكفوفين في العصر العباسي ، د. عدنان عبيد العلي : ٣٠٧

(٨) يُنظر : شعر العميان ، د. نادر مصاورة : ٣٢٤

(٩) نفح الطيب : ٧ / ٣١٤

(١٠) رعاية المكفوفين ، توماس ج . كارول ، ترجمة وتقديم د. صلاح مخيمر : ١١٠

(١١) يُنظر : نفح الطيب : ٣ / ١٧٩

(١٢) يُنظر : المصدر نفسه : ٢/ ٩٧

(١٣) يُنظر : تأريخ ابن خلدون ، عبد الرحمن بن خلدون (ت ٨٠٨هـ) ، ج١، ص٥٢٠ .

(١٤) المُغرب في حلى المَغرب ، ابن سعيد المغربي(ت ٦٨٥هـ) ، تحقيق د. شوقي ضيف : ٢ / ٤٠

(١٥) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، ابن بسام الشنتريني (ت ٥٤٢ هـ) ، تحقيق د. إحسان عباس : ق٢، ج٣،ص٣٧٩

(١٦) ديوان ابن درّاج القسطليّ (ت ٤٢١ هـ) ، تحقيق الدكتور محمود علي مكي :٤٩٧

(١٧) المصدر نفسه : ٤٢٠ – ٤٢١

(١٨) تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة ، د. إحسان عباس : ٢٥٧

(١٩) شعر ابن اللبانة الداني (ت٥٠٧ هـ) ، جمع وتحقيق محمد مجيد السعيد : ٥٠

(٢٠) المغرب في حُلى المغرب : ٢/ ٤٠٨

(٢١) يتّضح ذلك في أبيات ابن شرف القيرواني (ت ٤٦٠ هـ) يُجيب بها دعوة المعتضد بن عباد له لزيارة

اشبيلية ، جاء فيها :

أإنْ تصيّدت غيري صيد طائرة أوسعتها الحَبّ حتى ضمّها القفصُ

حسبتني فرصة أخرى ظفرت بها هيهات ما كلّ حين تُمكن الفرصُ

وظاهر حسن أيضا لقصّتها لكن لها باطن في طيّه قصصُ

لك الموائد للقصّاد مُترعة تُروي وتُشبع لكن بعدها غصصُ

ولستُ أعجب من قوم بهـا انتشبوا لكنّما عجبي من معشر خلصوا

(الذخيرة ق٤ ، ج٧، ص١٢٨)

(٢٢) المُغرب في حُلى المَغرب : ٢/ ١٦١

(٢٣) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة : ق٢ / ج٣ / ص٥٨٠

(٢٤) نفح الطيب : ٣ / ١٩٩

(٢٥) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة : ق٣ ، ج٥ ، ص٢٤٤

(٢٦) خريدة القصر وجريدة العصر ، عماد الدين بن محمد الأصفهاني (ت ٥٩٧هـ) تحقيق عمر الدسوقي وعلي عبد العظيم ، ق٤ ، ج٢ ، ص١٤١ ، والقعدد : الخامل ، الجبان ، القاعد عن المكارم ، برم اللسان : العييُّ .

(٢٧) نفح الطيب : ٥ / ٥٨٠

(٢٨) المصدر نفسه : ٣ / ٧٥

(٢٩) الكتيبة الكامنة في مَن لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة ، لسان الدين بن الخطيب (ت ٧٧٦ هـ) تحقيق الدكتور إحسان عباس : ٢٩١

(٣٠) الذخيرة : ق٢ ، ج٣ ، ص ١٠٦

(٣١) ديوان المعتمد بن عباد (ت ٤٨٥ هـ) ، : ٢٦

(٣٢) الذخيرة : ق١ ، ج٢ ، ص ٥٢٧

(٣٣) المصدر نفسه : ق٣ ، ج٥ ، ص ٩٠ – ٩١

(٣٤) المصدر نفسه : ق٣ ، ج٦ ، ص٦٦٧

(٣٥) المصدر نفسه : ق٢ ، ج٣ ، ص٣٣٩

(٣٦) نفح الطيب : ٥ / ٦٧

(٣٧) المُعرب في حُلى المَغرب : ٢ / ٥٣

(٣٨) المصدر نفسه : ٢ / ١٦٣

(٣٩) نفح الطيب : ٧ / ٣٠٣

(٤٠) شعر ابن وهبون المرسي ،

(٤١) نفح الطيب : ٧ / ٣١٣

(٤٢) الذخيرة ق٤،ج٧ ص ١٧٦

(٤٣) نفح الطيب ٤ / ١٦٩

(٤٤) ديوان ابن خاتمة الأنصاري(ت ٧٧٠ هـ)، تحقيق الدكتور إحسان عباس : ص ٧٧٠ هـ

(٤٥) نفح الطيب : ٣ / ١١٧

(٤٦) المصدر نفسه : ٣ / ٧٦

(٤٧) يُنظر: الشعر الأندلسي في عصر الطوائف ، هنري بيريس ، ترجمة الدكتور الطاهر احمد مكي : ٣٦٩ وما بعدها

(٤٨) ديوان أبي حيان الأندلسي ت(٧٤٥ هـ) ، تحقيق الدكتور احمد مطلوب والدكتورة خديجة الحديثي : ٣٧٩

(٤٩) ما تبقى من شعر الحاجب المصحفي ، محمد محمود يونس ، مجلة آداب المستنصرية ، ع١٢ ، ١٩٨٥ ، ص١٩٦

(٥٠) ديوان ابن زيدون ورسائله (ت ٤٦٢ هـ) ، شرح وتقديم علي عبد العظيم : ٣٤١

(٥١) الديوان : ٣٤٥

(٥٢) الديوان : ٣٥١

(٥٣) الديوان : ٣٦٢

(٥٤) الديوان : ٣٦٣

(٥٥) الديوان : ٣٤٣

(٥٦) الديوان : ٣٥٣

(٥٧) الديوان : ٣٤٤

(٥٨) الديوان : ٣٤٢

(٥٩) الديوان : ٣٥١

(٦٠) الديوان : ٤١٨

(٦١) الديوان : ٦١٥

(٦٢) محمد بن عمار الأندلسي، الدكتور صلاح خالص : ٢٨٨ – ٢٨٩

(٦٣) المصدر نفسه : ١٠٧

(٦٤) المصدر نفسه : ١٥٧

(٦٥) المصدر نفسه : ٣١٩ – ٣٢١

(٦٦) الذخيرة : ق٢ ،ج٣ ،ص ٣١٨

(٦٧) نفح الطيب : ٧ / ٣٧٣

ثبت بأسماء المصادر والمراجع والرسائل والأطاريح الجامعية

أولا : المصادر والمراجع

– تأريخ ابن خلدون ، ج١، عبد الرحمن محمد بن خلدون (ت ٨٠٨هـ) ، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت ، لبنان ، ١٩٧

– تاريخ الأدب الأندلسي – عصر سيادة قرطبة ، الدكتور إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، ط٦ ، ١٩٨١م

– خريدة القصر وجريدة العصر، ق٤، ج٢، عماد الدين بن محمد الأصفهاني (ت ٥٩٧ هـ) ، تحقيق عمر الدسوقي وعلى عبد العظيم ، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة ، ١٩٦٩ م

– ديوان ابن خاتمة الأنصاري(ت ٧٧٠ هـ) ، تحقيق الدكتور محمد رضوان الداية ، دار الفكر المعاصر، بيروت – لبنان، دار الفكر ، دمشق– سورية، ط١ ١٩٩٤ م

– ديوان ابن درّاج القسطلّيّ(ت ٤٢١ هـ) ، تحقيق الدكتور محمود علي مكي،منشورات المكتب الإسلامي بدمشق ،ط١، ١٩٦١م

– ديوان ابن زيدون ورسائله (ت ٤٦٢ هـ) ، شرح وتحقيق علي عبد العظيم ، منشورات مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين لإبداع الشعري ، الكويت ، ط٣ ، ٢٠٠٤م

– ديوان أبي حيان الأندلسي(ت ٧٤٥ هـ) ، تحقيق الدكتور احمد مطلوب والدكتورة خديجة الحديثي ، مطبعة العاني ، بغداد، ١٩٦٩ م

– ديوان لسان الدين بن الخطيب (ت ٧٧٦ هـ) ،مج١،مج٢، تحقيق الدكتور محمد مفتاح ، دار الثقافة ، الدار البيضاء ، ط١، ١٩٨٩م

– ديوان المعتمد بن عباد (ت ٤٨٨هـ) ، تحقيق أحمد أحمد بدوي ، د.حامد عبد المجيد، دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة ،ط٥، ٢٠٠٨م

– الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، أربعة أقسام في ثمانية مجلدات ،ابن بسام الشنتريني(ت ٥٤٢ هـ) ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، ٢٠٠٤م

– رعاية المكفوفين ، توماس ج كارول ، ترجمة وتقديم الدكتور صلاح مخيمر، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، نشر عالم الكتب ومؤسسة فرانكلين ،القاهرة ونيويورك ١٩٦٩ م

– شعر ابن اللبانة الداني (٥٠٧هـ) ، جمع وتحقيق د. محمد مجيد السعيد ،دار الكتب للطباعة والنشر، جامعة الموصل ، ١٩٧٧م

– الشعر الأندلسي في عصر الطوائف ، هنري بيريس ، ترجمة د. الطاهر أحمد مكي ، دار المعارف بمصر ، ط١، ١٩٨٨م

– شعر العميان ، الواقع، الخيال، المعاني، والصور الفنية حتى القرن الثاني عشر الميلادي ،الدكتور نادر مصاروه، مراجعة وتدقيق وتقديم الدكتور غالب عنابسة، دار الكتب العلمية ،بيروت ، لبنان، ط١ ،٢٠٠٨ م

– الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة ، لسان الدين بن الخطيب (ت ٧٧٦ هـ) ، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٦٣ م

– لسان العرب المحيط ، جمال الدين محمد ابن منظور(ت ٧١١ هـ) ، قدّم له العلامة الشيخ عبدالله العلايلي ، إعداد وتصنيف يوسف خياط ونديم مرعشلي ، دار لسان العرب ،بيروت، ١٩٧٠ م

– محمد بن عمار الأندلسي – دراسة أدبية تاريخية لألمع شخصية سياسية في تاريخ دولة بني عباد في اشبيلية ، الدكتور صلاح خالص ، مطبعة الهدى، بغداد، ١٩٥٧ م

– المخصّص ، مج١ ، السفر الثالث ، أبو الحسن علي بن إسماعيل ابن سيدة (ت٤٥٨هـ) ، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت .

– المدخل في علم النفس ، الدكتور هاشم جاسم السامرائي ، مطبعة الخلودو بغداد ، ١٩٨٨ م

– المعجم الوسيط ، ج١، قام بإخراجه إبراهيم مصطفى وآخرون ، أشرف على طبعه عبد السلام هارون ، المكتبة العلمية ، طهران

– المُغْرب في حُلى المَغْرب،ج٢، ستة مؤلفين من بني سعيد آخرهم علي بن سعيد المغربي(ت ٦٨٥ هـ) ، تحقيق الدكتور شوقي ضيف، دار المعارف بمصر،ط٤، (د.ت)

– نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ،أحمد بن محمد المقري(ت ١٠٤١ هـ)،الأجزاء (٢،٣،٤،٥،٧) تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار صادر،بيروت ، ١٩٦٨ م

– يحيى بن حكم الغزال ، محمد صالح البنداق ، قدّم له د. إحسان عباس ، دار الآفاق الجديدة ، ط١ ، ١٩٧٩م

ثانيا : الدوريات :

– (ما تبقى من شعر الحاجب المصحفي) ، محمد محمود يونس ، مجلة آداب المستنصرية ، مج ١ ، ع١٢ ، ١٤٠٦هـ ، ١٩٨٥م

ثالثا : الرسائل والأطاريح الجامعية

– شعر المكفوفين في العصر العباسي، دراسة نفسية وفنية في أثر كف البصر، عدنان عبيد العلي ، أطروحة دكتوراه ، كلية الآداب ، جامعة بغداد ، ١٩٨٩ م

- شعر ابن وهبون المرسي (ت ٤٨٠هـ) ، جمع وتحقيق ودراسة سمر صبحي أحمد ، رسالة ماجستير، كلية الآداب ،جامعة الموصل ، ١٩٨٩م